صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

بعض المعتقدات الاجتماعية الخاطئة حول العلاج النفسي

د.هيثم الزبيدي

يعاني مفهوم (العلاج النفسي) من التباس كبير في أذهان شريحة واسعة من أفراد المجتمعات العربية والنامية عامة ومجتمعنا العراقي خاصة.ولعل هذا الالتباس مرده الفصل أو العزل الذي تقيمه العقلية الشرقية بين مفهومي (الجسد) و(النفس).فقد اعتاد الناس في مجالسهم حينما يكون بين الحضور طبيب مختص بالأمراض الجسمية،أن يدور الحديث حول بعض هذه الأمراض وعن الجديد الذي توصل اليه الطب،ويتسابقون بكل جرأة وبمسمع من الجميع،على الاستفسار الدقيق عما يعانونه هم أو ذووهم من أمراض.فقد يشكو أحدهم من مرض السكر الذي أرهق أمه،وقد يشكو الثاني من ارتفاع ضغط الدم الذي أصاب والده بجلطة دماغية.فتتوالى شكاوى الحاضرين تباعاً دون شعور بالاحراج أو الخجل.ولكن في المقابل،اعتاد أغلبية هؤلاء الناس أن لا يفعلوا الشيء نفسه اذا كان الحاضر استشارياً نفسياً،اذ غالباً ما يتكتمون على أي اضطرابات نفسية يعانون هم أو ذووهم منها.واذا تحدثوا عنها،فغالباً ما يكون ذلك على سبيل الاستغراب والسخرية،تفادياً لتلك النظرة الدونية التي ربما ينظر بها بعض الحاضرين اليهم.كما يلاحظ في حالات كثيرة،أن المضطرب النفسي أو ذويه يهون عليهم أن يعترفوا بأن ما اعتراهم من علل نفسية انما كان بسبب الجن او السحر أو الحسد،وليس بوصفها أمراضاً نفسية،ذلك لأنهم يرون أن تلك الامور الغيبية انما حدثت بفعل اعتداء عليهم لا ذنب لهم فيه مما يعطيهم الحق في المعاناة،أما الاعتراف بالمرض النفسي فمعناه عندهم الاعتراف بالنقص والقصور وقلة القيمة.

ويمكن أن نحدد مجموعة من الأفكار والاتجاهات الخاطئة واسعة الانتشار في حياتنا الاجتماعية،والتي وجدنا عدداً غير قليل من الناس يحملونها في أذهانهم عن الاضطراب النفسي والعلاج النفسي على حد سواء،مما يجعلهم سلبيين في نظرتهم وتعاملهم مع هاتين الموضوعتين المهمتين،الأمر الذي يترك أثراً مؤذياً على صحتهم النفسية:

المعتقد الخاطئ بأن العلاج النفسي مجرد جلسات كلامية

يعتقد الكثير من الناس بعدم الحاجة الى المعالج النفسي،فيستعيضون عن ذلك ببعض الحوارات البسيطة التي يجرونها بأنفسهم مع المريض النفسي بهدف طمأنته ليس الا،مستبعدين أي امكانية للاستعانة بالمعالج النفسي لخوفهم أن (يشوش) هذا المعالج أفكار مريضهم المشوشة أصلاً.والواقع أن العلاج النفسي (غير الدوائي وغير الجراحي) ليس مجرد حوار مع المريض،انما هو مجموعة من (التكنيكات) العلمية التي تتبع منهجاً وبرنامجاً محددين،ولذلك فان من يقوم بها يجب ان يكون من المتخصصين ذوي التحصيل الأكاديمي. ولدينا اليوم عدة انواع للعلاج النفسي،منها :

١-العلاج بالاسناد الاجتماعي: وفيه يقوم المعالج بطمأنة المراجع(المريض)،وتوجيهه وارشاده،وتوضيح مختلف الامور له، ومحاولة تخليصه من مشاعر الوحدة أو العزلة أو العجز بزجه في برامج ارشادية ذات طابع جمعي.

٢-العلاج السلوكي : وفيه يقوم المعالج بتعديل بعض سلوكيات المراجع المرضية،واستبدالها بسلوكيات مناسبة،باستخدام (تكنيكات) منهجية محددة.

٣-العلاج المعرفي: وفيه يقوم المعالج بتقويم وتصحيح أساليب التفكير الخاطئة لدى المراجع التي ينظر بها الى نفسه ومستقبله والناس من حوله،ومحاولة استبدالها بأساليب صحيحة .

٤- العلاج بالتحليل النفسي: وفيه يقوم المعالج بمحاولة سبر أغوار اللا شعور (العقل الباطن) لدى المراجع،لاستكشاف العقد المستعصية وتفتيتها،باللجوء الى طرائق (التداعي الحر)، و(تحليل الأحلام)،و(التنويم الايحائي)،وغيرها.

المعتقد الخاطئ بأن المعالج النفسي شخص غير سوي

لعل أحد أهم أسباب العزوف والتوجس الذي يشعر به الناس في المجتمعات النامية نحو العلاج النفسي،هو ما دأبت عليه وسائل الاعلام والأعمال السينمائية والدراما التلفزيونية في هذه البلدان من اظهار المعالج النفسي بصورة مشوهة،فهو ذلك الشخص الغريب الاطوار،ذو النظرات الزائغة والحركات غير المتزنة والملابس غير المتناسقة.كما قد يظهر منفوش الشعر مرتدياً نظارات سميكة تتدلى على أرنبة انفه،مما يزيد من غرابة مظهره.وكل ذلك بسبب أن البعد الكوميدي الفج أكثر اهمية من البعد الاجتماعي القائم على توعية الجمهور وتنويره،عند منتجي هذه الأعمال .

وفي الحقيقة فان الاستشاري النفسي ما هو الا انسان عادي تماماً.وقد أجريت بعض الدراسات العلمية حول هذا الأمر،فلم يتم التوصل الى فرق احصائي واضح يثبت ان المعالج النفسي أكثر اضطراباً من الناحية النفسية من غيره. ويبدو أن تركيز الناس في نقدهم على المعالج النفسي دون غيرهم من المعالجين،له دور كبير في تكوين هذا المعتقد،فضلاً عن أن هناك بعض الاستشاريين النفسيين (وهم ندرة)،اختاروا الدراسة النفسية لما يعانونه من بعض المصاعب النفسية التي يبحثون لها عن علاج،والتي قد تبدو على تصرفاتهم بعض الشيء،فيلاحظها الناس ويبالغون في تفسيرها،ولو كانت عند غيرهم لما لاحظوها.كما يعتقد بعض الناس بأن شخصية المعالج النفسي قد تتأثر مع الزمن بشخصيات مراجعيه،فتصيبه بعض العلل النفسية.وفي الحقيقة أن هذا الاعتقاد لا سند علمياً له،وانما هو مجموعة من الاوهام نشأت بسبب النظرة الاجتماعية المتوجسة من العلاج النفسي .

المعتقد الخاطئ بأن الاضطرابات النفسية أعراضها نفسية بحتة ولا يمكن أن تظهر بأعراض عضوية

هذا اعتقاد خاطئ آخر، فالاضطرابات النفسية يمكن ان تظهر بأحدى ثلاث صور :

أولاً: مجموعة من الاعراض النفسية دون ان يصاحبها أية اعراض عضوية .

ثانياً: مجموعة من الاعراض العضوية (ذات المنشأ النفسي) كالغثيان والقيء وآلام الظهر والبطن والأطراف،دون ان يكون هناك أعراض نفسية واضحة مصاحبة.وهذا يجعل المريض وذويه يعتقدون بأن المرض عضوي لا نفسي.مثال ذلك أن الاكتئاب عند كبار السن في المجتمعات الشرقية بشكل خاص،قد يظهر في أحيان كثيرة مصحوباً بأعراض عضوية.وما تلك النوبات المتكررة من أوجاع الظهر التي تصيب بعض النساء المسنات أحياناً الا نوبات متكررة من الاكتئاب،بالرغم من أن العامة يصفونها بأنها أعراض الروماتزم.كذلك الحال عند بعض الرجال المسنين ممن فقدوا مع تقدم العمر بهم دور الآمر الناهي داخل الأسرة،فلم يعد لهم دور مهم وبدأ يتسرب الى أنفسهم الشعور بأنهم أصبحوا على هامش الحياة،فنراهم بين الحين والاخر يشكون من بعض الاوجاع،أو يبالغون في الشكوى من بعض ما يعانونه من أمراض سابقة بطريقة لا شعورية.وكل ذلك من أجل جلب اهتمام من حولهم والشعور بأنهم ما زالوا محط احترام وتقدير الاخرين.

وقد يحدث العكس،فتظهر الامراض العضوية بأعراض نفسية ،كما هو الحال في اضطرابات الغدة الدرقية والحمى المالطية وغيرها .

ثالثاً: قد تأتي الاضطرابات النفسية مصحوبة بمجموعة من الاعراض النفسية والعضوية في آن واحد،وهو ما يحدث في أغلب الاحوال،كشكوى مريض القلق مثلاً من خفقان القلب والتعرق والرجفة في بعض انحاء الجسم،فضلاً عن شعوره بالخوف والتوجس وعدم الشعور بالاستقرار.

المعتقد الخاطئ بأن الأمراض النفسية لا بد أن تكون مرتبطة بالجنون والتخلف العقلي

وهذا يؤدي الى التردد في زيارة المعالج النفسي،والخجل من ذلك،بل ربما الامتناع عن الاقدام عليه اصلاً،بالرغم من الحاجة الشديدة اليه.ولذلك نرى بعض المرضى يجلس متلثماً في صالة الانتظار،والبعض الآخر يتعمد أن يتأخر في الحضور الى العيادة النفسية حتى يتأكد من أن أكبر عدد من المراجعين قد انصرف،بل قد تجد بعض المرضى أحياناً يحاول جاهداً مع معالجه أن يكون لقاؤهما خارج العيادة.ومن مضار هذا الاعتقاد الخاطيء أن يتأخر الناس في احضار مريضهم حتى يستفحل عنده المرض جداً،مما قد يجعل من الصعب علاجه،أو يتطلب مدة اطول من العلاج.ولعل التقليد الطبي السائد في عزل المرضى النفسيين في مستشفيات خاصة،هو الذي يعزز هذه النظرة الخاطئة وغيرها من النظرات السلبية تجاه العلاج النفسي.

الانترنيت النفسي

لماذا يكذب الأطفال والمراهقون ؟!

يولد الأطفال كائنات محايدة، ثم يتعلمون الصدق والأمانة شيئاً فشيئاً من البيئة إذا كان المحيطون بهم يراعون الصدق في أقوالهم ووعودهم. لكن إذا نشأ الطفل في بيئة تتصف بالخداع وعدم المصارحة والتشكك في صدق الآخرين فاغلب الظن أنه سيتعلم نفس الاتجاهات السلوكية في مواجهة الحياة وتحقيق أهدافه. والطفل الذي يعيش في وسط لا يساعده في تنمية اتجاهات الصدق والتدرب عليه، فإنه يسهل عليه الكذب خصوصاً إذا كان يتمتع بالقدرة الكلامية ولباقة اللسان وإذا كان أيضاً خصب الخيال. وعلى هذا الأساس فان الكذب صفة أو سلوك مكتسب نتعلمه، وليس صفة فطرية أو سلوك موروث. فالكذب عادة عرض ظاهري لدوافع وقوى نفسية تحدث للفرد سواء أكان طفلاً أو بالغاً. ويمكن للكذب أن يظهر بجانب أعراض أخرى كالسرقة أو الخوف أو الغضب الشديد.

وقد يلجأ بعض الآباء إلى وضع أبنائهم في مواقف يضطرون فيها إلى الكذب. وهذا أمر لا يتفق مع التربية السليمة، كأن يطلب الأب من الابن أن يجيب السائل عن أبيه كذباً بأنه غير موجود، فأن الطفل في هذه المواقف يشعر بأنه أرغم فعلا على الكذب ودرب على أن الكذب أمر مقبول، كما يشعر بالظلم على عقابه عندما يكذب هو في أمر من أموره، كما يشعر بقسوة الأهل الذين يسمحون لأنفسهم بسلوك لا يسمحون له به .

ولكي نعالج كذب الطفل يجب دراسة كل حالة على حدة وبحث الباعث الحقيقي إلى الكذب، وهل هو كذب بقصد الظهور بمظهر لائق وتغطية الشعور بالنقص، أو أن الكذب بسبب خيال الطفل أو عدم قدرته على تذكر الأحداث؟

وهناك أنواع من الكذب منها:

١. الكذب الخيالي

حيث يلجأ الأطفال الصغار (من سن ٤ إلى ٥ سنين) إلى اختلاق القصص وسرد حكايات كاذبة. وهذا سلوك طبيعي لأنهم يستمتعون بالحكايات واختلاق القصص من أجل المتعة لأن هؤلاء الأطفال يجهلون الفرق بين الحقيقة والخيال.

٢. كذب الدفاع عن النفس

وقد يلجأ الطفل الكبير أو المراهق إلى اختلاق بعض الأكاذيب لحماية نفسه من أجل تجنب فعل شيء معين أو إنكار مسؤوليته عن حدوث أمر ما.

٣. الكذب الاجتماعي

وقد يكتشف بعض المراهقين أن الكذب من الممكن أن يكون مقبولاً في بعض المواقف، مثل عدم الإفصاح للزملاء عن الأسباب الحقيقية لقطع العلاقة بينهم لأنهم لا يريدون أن يجرحوا شعورهم. وقد يلجأ بعض المراهقين إلى الكذب لحماية أمورهم الخاصة أو لإشعار أنفسهم بأنهم مستقلون عن والديهم (مثل كتمان أمر هروبهم من المدرسة مع أصدقائهم في أوقات الدراسة).

٤. كذب المبالغة

وقد يلجأ بعض الأطفال إلى سرد قصص طويلة قد تبدو صادقة. وعادة ما يقول الأطفال أو المراهقون هذه القصص بحماس لأنهم يتلقون قدرا كبيرا من الانتباه أثناء سردهم تلك الحكايات. وهناك البعض الآخر من الأطفال أو المراهقين ممن يكونون على قدر من المسؤولية والفهم وبالرغم من ذلك يكونون عرضة للكذب، فهم يشعرون أن الكذب هو أسهل الطرق للتعامل مع مطالب الآباء والمدرسين والأصدقاء. وهؤلاء عادة لا يحاولون أن يكونوا سيئين أو مؤذين، لكن النمط المتكرر للكذب يصبح عادة سيئة لديهم.

٥. الكذب المرضي

وهناك أيضا بعض الأطفال والمراهقين الذين لا يكترثون بالكذب أو استغلال الآخرين. وقد يلجأ البعض منهم إلى الكذب للتعتيم على مشكلة أخرى أكثر خطورة•على سبيل المثال يحاول المراهق الذي يتعاطى المخدرات والكحوليات إلى إخفاء الأماكن التي ذهب إليها، والأشخاص الذين كان معهم، والمخدرات التي تعاطاها، والوجه الذي أنفق فيه نقوده.

٦. الكذب الانتقامي

فقد يكذب الطفل لإسقاط اللوم على شخص ما يكرهه أو يغار منه وهو من أكثر أنواع الكذب خطراً على الصحة النفسية وعلى كيان المجتمع ومثله وقيمه ومبادئه، ذلك لان الكذب الناتج عن الكراهية والحقد هو كذب مع سبق الإصرار، ويحتاج من الطفل إلى تفكير وتدبير مسبق بقصد إلحاق الضرر والأذى بمن يكرهه . ويكون هذا السلوك عادة مصحوبا بالتوتر النفسي والألم. وقد يحدث هذا النوع من الكذب بين الاخوة في الأسرة بسبب التفرقة في المعاملة التي يتلقونها من الوالدين، أو بين التلاميذ في المدارس نتيجة الغيرة لأسباب مختلفة .

ماذا تفعل عندما يكذب الطفل أو المراهق؟

★من المهم أن نتعرف عما إذا كان الكذب عارضا أم عادة عند الطفل وهل بسبب الانتقام من الغير أو إنه من دافع لا شعوري مرضي عند الطفل. وكذلك فإن عمر الطفل مهم في بحث الحالة حيث إن الكذب قبل سن الرابعة لا يعد مرضاً، ولكن علينا توجيهه حتى يفرق بين الواقع والخيال. أما إذا كان عمر الطفل بعد الرابعة فيجب أن تحدثه عن أهمية الصدق ولكن بروح من المحبة والعطف دون تأنيب أو قسوة.

★كما يجب أن يكون الآباء خير مقبل يحتذى به الطفل فيقولون الصدق، ويعملون معه بمقتضاه حتى يصبحوا قدوة صالحة للأبناء. وجدير بنا ألا نكذب على أطفالنا بحجة إسكاتهم من بكاء أو ترغيبهم في أمر من الأمور فإننا بذلك نعودهم على الكذب.

★كذلك يجب عدم عقاب الطفل على كل خطأ يرتكبه مثل تأخر عودته من المدرسة أو زيارة لصديق بدون إذن أو القيام بعمل بدون علم والديه، فإنه سيضطر للكذب هروباً من العقاب.

★إثابة الطفل على صدقه في بعض المواقف فذلك سيعطيع دافعاً إلى أن يكون صادقاً دائماً، وإشعاره بثقتنا في كلامه، واحترامنا وتقديرنا له.

★وأخيراً إذا اعتاد الطفل على الكذب كنمط مستمر في سلوكه وأقواله فيجب حينئذ طلب الحصول على مساعدة متخصصة من طبيب نفسي أو مرشد نفسي. إن استشارة الاختصاصي النفسي سوف يساعد الآباء على فهم أسباب هذا السلوك المرضي وعلى وضع التوصيات المناسبة للتعامل مع هذه المشكلة في المستقبل.

السياسي ومفهوم الذات وصورة البطل

شوقي يوسف بهنام/جامعة الموصل

يمكن القول أن صورة الذات (أو مفهوم الذات)،التي يكونها السياسي عن نفسه،انما تأتي عبر تجربته النضالية أو تأريخه النضالي،اذا استخدمنا هذا التعبير الدارج والشائع في آن واحد.والحقيقة أن السياسي لا يختلف أو ينفرد عن غيره في هذا الخصوص،فكل واحد منا يكوّن صورته عن نفسه بناءاً على ما تراكم لديه من خبرات،أياً كان شكلها أو مضمونها،عبر تأريخه الحياتي الطويل.ولذلك فأن من الطبيعي،أن تختلف تلك الصورة باختلاف ذلك التأريخ،أو باختلاف هذا الفرد عن ذاك.ويعرف علماء النفس مفهوم الذات-Self- Con cept على أنه ((تقدير الفرد لقيمته كشخص،ويظهر جزئياً من خبرات الفرد بالواقع واحتكاكه به،ويتأثر تأثراً كبيراً بالأحكام التي يتلقاها من الأشخاص ذوي الأهمية الانفعالية في حياته، وبتفسيراته لاستجاباتهم نحوه)).

يبدأ السياسي حياته المهنية،باعتناق خطاب أيديولوجي معين.ونحن نفترض،مقدماً،أن هذا الاقتناع بهذا الخطاب، انما هو ناتج من أن مفردات هذا الخطاب تتلاءم أصلاً مع حاجات هذه الذات.اذن، وبهذا المعنى، فأن الخطاب ما هو الا ترجمة لحاجات تلك الذات،سواءاً أكانت هذه الذات فردية أم جمعية،كأن تكون طبقة،في ضوء المفهوم الماركسي مثلاً.ولا يهمنا هنا تحديد مستوى الذكاء لدى الرجل السياسي،فقد يكون قارئاً ومحللاً ممتازاً،وقد يكون مجرد امعة (تابع) ليس الا،لا تهمه تجريدات الخطاب قدر ما تدغدغه بعض من أحلامه، أعني احلام الخطاب! تلك هي المرحلة الأولى من حياة السياسي، ولا بد من القول أن هذه الفترة يمكن أن تقارن بفترة الطفولة،بعبارة أخرى، مرحلة تكوّن الذات لشخص بدأ ينمو بطريقة معينة.وفي هذه الفترة يمكن أن نميز في حياة السياسي مرحلة ظهور البطل لديه.ولا شك فأن البطل عند السياسي هنا، ليس سوى سياسي كبير،سواءاً أكان هذا البطل من فترات تأريخية بعيدة،أو من تأريخه المعاصر. وهذه المرحلة تمتاز بظهور مشاعر الاعجاب ومن ثم محاكاة هذا البطل ،وأخيراً محاولة التماهي به.كما يكون مفهوم الذات فيها غير مستقل أو غير متمايز بعد،بل مجرد محاولة لتوسيع دائرة عملية التماهي تلك،لا أكثر.لا يكتفي السياسي بتلك المرحلة،أعني أن يكون مجرد معجب أو متماه بهذا البطل أو ذاك فحسب،بل يريدأن يكون هو الآخر بطلاً على منواله. بعبارة أدق فهو يحاول إن يترجم عملية التماهي،من مجرد رغبة لا شعورية أو حلم من أحلام اليقظة،الى التمظهر بمظاهر البطولة وسماتها في مجمل تفاصيل حياته اليومية.وهنا تبدأ مرحلة أخرى في التبلور لديه،فحتى يترجم هذه الرغبة الى سلوك يومي، يبدأ السياسي بنقل خطابه الى الآخر وتوسيع دائرة ذلك الخطاب والدعوة اليه.وتبدأ بهذه المهمة ما يمكن تسميته بفترة النضال السري.وهي الفترة التي تبدأ بنقل الخطاب الى الآخر لكي تتم ترجمته في الحياة اليومية.هنا يشعر السياسي بالتمايز والاستقلال عن البطل،ليكون هو البطل بعينه.وما يعزز الفكرة التي يبدأ بالشروع بالايمان بها،أعني أنه البطل،هو التعذيب والسجن والملاحقة والمطاردة من السلطة،لأن خطابه هو أصلاً دعوة لمقاومة السلطة ان لم تكن الاطاحة بها.هنا تظهر مشاعر الرضا عن الذات لديه،مما يجعله ينظر الى هذه الأساليب القمعية الصادرة عن الآخر (السلطة) على أنها مدعاة لاستثارة مشاعر الفخر والاعتزاز لديه،وأنها ليست أفعالاً مخلة باخلاقه أو شرفه،أياً كانت طبيعة تلك الأساليب أو أشكالها أو أنماطها.وهذه المرحلة من المراحل المهمة في تأريخ السياسي،وأهميتها تكمن في تشكيل مفهوم الذات لديه.وحين يحالف الحظ السياسي،أو يسعفه القدر ويحقق أحلامه ويستطيع أن يترجم ما يصبو اليه،فأنه في تلك اللحظة سوف ينظر الى ذلك التأريخ نظرة مفعمة بالتقدير،بل يحاول أن يبالغ في ذلك التقدير في بعض الأحيان،لكي يكبر بنظر نفسه أولاً،وبنظر الآخرين،وهذا هو المهم ثانياً،لأن في ذلك تجسيد لمظاهر البطولة وأشكالها لدى الآخر.أما اذا لم يحالف الحظ ذلك السياسي،فانه سوف يعيش حالة الاحباط والخيبة والفشل.وسوف يحاول ترميم مظاهر الانكسار لديه،بلجوئه الى اختلاق الأعذار وتبرير الأسباب أو بدعوته الى أن العمل الذي اختاره طريقاً له في الحياة،لا فائدة منه وانه قد أضاع العمر كله في المضي نحو السراب.

ان مفهوم الذات لدى السياسي،بهذا المعنى مرهون بنجاحه أو فشله في ترجمة صورة البطل التي تبناها وحاول محاكاتها عبر مختلف مراحل تأريخ حياته،اليومية منها والمهنية على حد سواء.

سلعنة القيم

أ.د. قاسم حسين صالح
رئيس الجمعية النفسية العراقية

في كتابه الذائع الصيت (To Have or to Be) شخّص عالم النفس والناقد الاجتماعي الكبير (اريك فروم) وضع الانسان بأنه تحول الى سلعة تحكمه قوانين العرض والطلب والبيع والشراء.وكان يقصد بذلك الانسان في الدول الصناعية الكبرى، وفي أمريكا تحديداً.وطرح في ذلك الوقت من نهاية السبعينيات مصطلح ((الشخصية التسويقية))، ووصفها بأنها تقوم على ممارسة الشخص لذاته كسلعة،ولقيمته ((كقيمة تبادلية))لا ((كقيمة انتفاعية)).

وان الكائن البشري أصبح سلعة في ((سوق الشخصيات))،وان معايير التقييم في هذه السوق لا تختلف عن نظيرتها في سوق السلع.في واحدة تعرض السلع للبيع،وفي الأخرى تعرض الشخصيات للبيع أيضاً.وصار نجاح الفرد متوقفاً الى حد كبير على كيفية اظهاره (لشخصيته) بشكل تؤمن له ((صفقة)) مقبولة.وأن يكون لا كما يريد هو أن يكون،بل كما يريد له المشتري أن يكون،حتى لو اقتضى الأمر أن يتجرد من قيمته الانسانية.

ولقد أرجع فروم الأمراض النفسية للفرد الى بشاعة المجتمع الاكتنازي المعاصر،خصوصاً التسلط والبيروقراطية وعقلية السوق.وعدّ الجشع والحقد والحسد صفات غير متأصلة في الطبيعة البشرية،وأرجعها الى صعوبة مقاومة الضغوط الاجتماعية على الفرد حتى يصبح ذئباً في عالم الذئاب.

المجتمع العراقي.. هل هو في بداية كارثة أخلاقية؟

تأملت في توقعات فروم هذه التي نشرها قبل أكثر من ربع قرن،فوجدت أن الأحداث اللاحقة أثبتت صحتها.غير أنه كان قد حددها قبل وفاته عام ١٩٧٩،بالمجتمعات الصناعية والمجتمع الأمريكي على وجه الخصوص.

على انني أرى أن ما أصاب المجتمع العراقي من تغيير في منظوماته القيمية،وتقطع لبعض الخيوط في نسيجه الأخلاقي الناجم عن الحروب والأزمات لأكثر من ربع قرن،فضلاً عن الأحداث الجارية التي أجهزت على قيم أنهكتها الكوارث،وأصابت قيماً أخرى في مواضع موجعة،جعلته(المجتمع العراقي) مرشحاً الى أن يشكل (أنموذجاً)) لمجتمعات دول المنطقة في ((سلعنة القيم وموت الضمير))، لسببين رئيسين:

الأول: ان العراق واقع تحت الاحتلال الأمريكي. وان (جورج بوش) الأب كان قد قال في أوائل التسعينيات: ((ان القرن القادم ينبغي له أن يكون أمريكياً)).وقبله قال(نيكسون): ((يجب على أمريكا أن تقود العالم))،الذي هو امتداد لقول (روزفلت) في الاربعينيات: ((ان قدرنا هو أمركة العالم)).

ولست معنياً بالأمر السياسي للاحتلال،انما بالمجال الأخلاقي القيمي،لأنني أتوقع أن الأمراض النفسية والاختلال في القيم والأخلاق التي شخصها فروم في المجتمع الأمريكي،ستنتقل الى المجتمع العراقي،لأن النوايا التي لمح لها أو صرح بها الزعماء الأمريكيون السابقون،تتحول الآن الى حقائق واقعة في العراق.

والثاني: ان العراق سيكون بوابة الشرق الأوسط الأوسع للعولمة.ولست معنياً هنا بالبعدين السياسي والاقتصادي للعولمة،وما قد يكون لهما من ايجابيات،بل فيما ستحدثه العولمة من تدمير أو تخريب أو تهرؤ في النسيج الأخلاقي،قد يفضي الى موت الضمير،ليس بسبب ما تحمله العولمة من سلبيات،بل وأيضاً لأننا نتعامل معها في ظرف استثنائي وحالة نفسية غير مستقرة قد تفقدنا التفاعل الأيجابي معها.وأن هناك مؤشرات وأدلة تفيد بأن العولمة قد زادت من وتيرة سلعنة القيم في المجتمع،وجعلت كل شيء معروضاً للبيع مقابل أجر معلوم،بما فيها :الذمم والضمائر والأجساد البشرية.

ان ما نخشاه ونحذر منه،بوصفنا معنيين بالسلوك الانساني،هو أن الجشع والاستهلاك المتعي قد شاعا في مجتمعنا.واذا أخذنا برأي (فرويد) القائل: ((ان الشخص الذي لا يهمه الا التملك والكسب هو شخص مريض عقلياً ومصاب بالعصاب))،ونظرنا الى ما يحدث الآن في مجتمعنا من هستيريا الشراء والتملك،فهذا يعني أن المجتمع في طريقه الى الجنون،أو كاد أن يكون مريضاً نفسياً بشكل وبائي.وهنالك مؤشر يدعم هذا التشخيص،ذلك أن (احترام الحياة) الذي يعدّ على وفق المعايير كافة،المبدأ الأخلاقي الأول الذي تقوم عليه القيم الانسانية الأخرى،ها نحن نراه ينتهك،وتهدر يومياً حياة العشرات من الناس الأبرياء.

ومما يؤسف له، اننا على المستويين الرسمي (الحكومة تحديداً) والاجتماعي،غير مكترثين بما يحدث للقيم والأخلاق من تهرؤ،بالرغم من انها صارت حديثنا اليومي،الذي صار إشبه بطقس،يأسف فيه فريق على ما حصل ويحصل،ويقيم فريق آخر مأتماً على ((الأخلاق والقيم))،ويقرأ عليها السلام!واذا بنا غير مدركين لما سيحصل من أمور أخرى.ففي الطريق الينا ما يهدد وينسف القيم الأسرية،ويميت الضمير،ليس الوظيفي فقط،انما الشرفي أيضاً،بأنواع جديدة من الزواج والطلاق والمعاشرة. واننا ما لم نتدارك قيمنا بشيء من التوازن بين ثوابتنا وبين ما هو جديد علينا ومفيد لنا،فاننا في طريقنا الى كارثة أخلاقية،سيفجرها علينا جيل من نوع خاص جداً،يجب أن نحسب له ألف حساب،لأنه ولد في حرب ونشأ في حرب،ويعيش الآن في اكثر من حرب.